المحاضرة رقم (05)
نظام التعليم بالمغرب الأوسط

- طريقة التعليم:

لقد كانت طريقة التعليم التي ظل العمل جاريا بها طيلة العهد الزياني في المغرب الأوسط تتمثل في طريقة الإلقاء والشرح ومُلخصٍ هذه الطريقة هو أن يقوم أحد الطلبة النجباء في حلقة الدرس بقراءة نص من كتاب مشهور التداول في المادّة المراد دراستها، ثم يقوم بعده المدرس بشرحه وتحليله فقرة فقرة ويكون ذلك حسب ما كان يتصف به الأستاذ من التمكن في تلك المادة من غرازة الحفظ وسعة الاطلاع، والطلبة حوله ينصتون ويدونون ما بلغت انتباههم من شرح المُدرس وأجوبته على الأسئلة التي تُلقى عليه من قبلهم، وكانت هذه الطريقة أحسن الطرق مما كانت عليه في بقية مدن بلاد المغرب كالقيروان وفاس ومراكش.

ولم يكن ألقاء العلوم على الطلبة إلقاءًا جزافيًا، بل كانوا يأخذونها التدرج شيئا فشيئا، وذلك حسب إمكانية إدراكهم وفهمهم لها. مع الأخذ بعين الاعتبار الفروق الفردية في ذلك، بحيث يَعُونها من جهة ويستفيدون من جهة ثانية حتى يقع لهم التحصيل بالتدرج الذي يقضي إلى أن تحصل الملكة في العلم المطلوب.

وقد أورد ابن خلدون في مقدمته فصلاً عن التعليم وطريقته المتبعة فيه قائلاً: "... وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلاميذه فإنه قرأ مع ابن عبد السلام، على مشيخة واحدة، وفي مجالس بأعيانها... وبقيت فاس وباقي أرجاء المغرب خلوًا من حسن التعليم، من لدن انقراض التعليم في قرطبة والقيروان، ولم يتصل سند التعليم فعسر عليهم حصول الملكة والحدق في العلوم..."

وفد تعرضت هذه الطريقة المتبعة في التعليم في كامل أمصار العالم الإسلامي آنذاك باستثناء الأندلس إلى الانتقاد من طرف العلماء منذ عصر الإمام أبي بكر بن العربي، الذي طاف العالم الإسلامي، ورأى أن صبيان المسلمين في كافة البلاد التي زارها يبدؤون أولاً بتعليم القرن الكريم دون أن يدركوه فانتقد ذلك.

ولكن في القرن 8 و9هـ طرأ تغيير في طريقة التعليم المعتمد في السابق حيث أصبح الطلاب يأخذون العلوم كل على حسب قدراته الخاصّة، معتمدين في ذلك على الذاكرة وقوة الحفظ دون مناقشة وتحليل، ثم أصبحوا بعد هذا يناظرون ويجادلون في القضايا التي يصعب فهمها. هذه الطريقة هي أحسن الذرق لأنها تكسب الطالب قوة البحث والمناظرة وقد قال عنها ابن خلدون في مقدمته: "وأيسر

طرق حصول الملكة إنما يكون بفتق اللّسان وبالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو يقرّب شأنها ويحصل مراميها..." وبفضل هذه الطريقة صار المعلمون يخاطبون طلابهم حسب ما لديهم من معلومات وكذا ما يتصفون به من الذكاء وقوة الاستيعاب والإدراك من دون تقصير ولا مبالغة، هذا ما ساهم في انتشار العلوم وازدهارها ازدهارًا كبيرًا في المغرب الأوسط.

وقد كان الطلاب لا يعقدون حلقات الدروس في أماكن التعليم إلا حول مُدرس مشهور، شهد

له بالعلم وحسن السيرة فيلتفون حوله وينهلون منه مختلف العلوم.

كما أن الطالب الذي يرغب في أن يتطلع في العلوم، كان يرزم شيخه في كل الأوقات تقريبًا، كما كان الحال مع القلصادي حين زيارته لتلمسان فقد لازم الشيخ "أحمد بن زاغو" مدة من الزمن من أجل الأخذ عنه على الفرائض الذي شهد له بالإحاطة فيه، وكذلك الحال مع "الملالي" صاحب كتاب المواهب القدسية، الذي لازم شيخه السنوسي مدة من الزمن تقارب الخمسة والثلاثين سنة.

ولم يتوقف علماء المغرب الأوسط ف الاجتهاد والبحث على أنجع الطرق التعليمية التي يتمكنون من نشر العلوم والقضاء على الأمي والجهل ومن هؤلاء محمد ن يوسف السنوسي، الذي اجتهد في استنباط منهج في التعليم، مارس به التدريس في جامعة الصغير بتلمسان